التخييل الشعري وأثره في تحقيق أهداف التربية لدى الناشئة

د. آدم محمد أبو القاسم عبد الله*
كلية النيل الأبيض للعلوم والتكنولوجيا E.mail : adamgassim@hotmail.com

المستخلص :

درج نقاد العربية على دراسة التخييل الشعري ، مستمدين من قوانينها العامة الطرق التي تكفل بيان أثرها في نفس المتلقي الواعي الذي يتنبه لما في التخييل من تمويه على النفس ، وحملها على الاستجابة لمقتضاه ، غير أنهم لم يميزوا في هذه الدراسات بين ما يناسب خيال البالغ ، وبين ما يناسب خيال الناشئ ، لاسيما وقد ثبت أن الخيال هو المحال الرحب الذي يتكيف معه الناشئ ، والفضاء الذي يُشبع فيه حاجاته النفسية والوجدانية والتربوية والفنية الشيء الذي يسهم في نمو شخصيته – نمواً سليماً – مستقبلاً ولهذا فإن هذه الدراسة تحاول توظيف ما تعارف عليه العلماء من مفاهيم التخييل العامة بغرض دراسة أثرها في نفس الناشئ بتلمس الأسس النظرية اللازمة عند إعداد أدب الطفل : وذلك لتحقيق أهداف بينها : مدى قدرة التخييل الشعري في الإسهام في تنمية خيال الطفل ، وهل التناقض بين ما ينقله الشعر للنشء من مفاهيم سلبية وبين ما يتلقونها من قيم إسلامية درساً وتنشئة يحد من انطلاق خيالهم ؟ وقد اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي وخلصت إلى نتائج أهمها : أن النشئ متساوون في وجود الخيال في شخصياتهم ، لكن التمايز يكمن في نمو الخيال ونشاطه عندهم ، وهذا رهن البيئة التعليمية التي يتلقونها ، من هنا تتأتى قيمة استصحاب الأشعار التي تتعهد بتنمية ملكة الخيال عندهم . فضلاً عن أنه إذا حدث تصالح بين ما تتطلبه نفس الطفل والفكرة المنقولة شعراً ضمن معدو المناهج التعليمية اكتمال عملية التأثير في نفس الطفل ، وبالمقابل فإن التناقض بين الفكرة الشعرية وبين ما وقر في نفس الناشئ من قيم اجتماعية أو دينية أو وطنية يقلل من قدرته على التحليق في فضاءات النص . لذا أوصي البحث بالآتي : ألا تكون هنالك وصاية أو حكر على خيال الطفل إلا بمقدار ما يتنافى مع الشرع أو العرف . فضلاً عن أنه الأولى استصحاب أساليب شعرية متنوعة عند إعداد أو مع الطفل من سرد مباشر وتصوير وتمثيل وقصص ورمز فذلك يناسب أنماط أخيلة الأطفال من مخيلة كسولة وأخرى متوسطة وأخرى نشطة .

ABSTRACT

The Arab critics prevalent to study the issue of poetic Imagination , and they obtained from their public laws the ways which ensure that the statement of impact in the receiver's conscious who notice in the illusions which disguise one's self , an get them to respond to go with , but they didn't discriminate .

In these studies , between what is appropriate for the adult's fiction and what fits the imagination of the grownup , so this study is trying to recruite along relationship by the scholars to know the concepts of general illusions in the emerging himself . By drawing the theoretical fundamentals for the preparation of the so-called child's literature , particulary it has been proven that the imagination is the welcoming area , in which the emerging find himself and the space which satisfies the needs psychological , sentimental , educational and technical , something that contributes to the growth of his character in the future , through healthy growth .

The research found results that due to the poetry by its virutue of the magic which directed to the emerging that is a double – egedsword , thus , it should as well as the poetic illusions which doesn't provided by pure –science as far as possible to streng them the idea in the emerging conscious . And then the knowledge turns into belief , into

behavious; thus can recruite poetry to high wanted according to acceptable of mind and religion and self-right eousness .

Key world

- Imagination : the ability to form mental images for a sense of finality .
- Legal age for the mature .
- Non-mature or Junior .

المقدمة:

عكف فلاسفة الإسلام ونقاد العربية على دراسة قضية المحاكاة الشعرية ، أو التخييل كما أطلقه الفارابي ، وأشاع استخدامه ابن سينا في حقل الدراسات النقدية والفلسفية ، فالتخييل في عُرف النقاد يعني بإيجاز ، إعادة صياغة الواقع بصورة جديدة (فالخيال بصورة عامة هو مجموعة صور وأفكار يتم الحصول عليها من الواقع عبر الأحاسيس والإدراكات ، حيث يعاد ربط هذه الأمور وتكوينها في صورة جديدة تبعد عن الواقع الموضوعي الحقيقي ، عندها تسمى "خيالاً") [1] (فوزي 2002م) . هذا من جهة العموم ، أما التخييل الشعري من جهة الخصوص ، فهو قدرة الشاعر – من خلال المحاسن التأليفية – على تكوين صور ذهنية غابت عن متناول الحس، ولا تنحصر فاعلية هذه القدرة في مجرد اجترار الواقع ، بل تتعدى ذلك إلى صياغته في صورة جديدة تنم عن إبداع الشاعر وقدرته على نقل أحاسيسه.

وتكمن أهمية الموضوع في استهداف النشئ ، بكون النقاد قد مالوا في دراستهم لقضية التخييل من حيث هو علم يدرس الشعر باعتباره ظاهرة إنسانية عامة ، دون تخصيص ولهذا فإنهم لم يهتموا بوضع قوانين للتخييل الشعري باستثناء قلة منهم حازم القرطاجني من خلال كتابه : (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) مما قلل من إنزال فكرة التخييل الأرسطية للواقع الاجتماعي العربي ، وأفنوا مدادهم في الاهتمام بأثر التخييل الشعري عند الكبار ، بالإفاضة في الحديث على سيكلوجية المبدع وسيكلوجية المتلقي ، ولم يميزوا في التخييل بين ما يناسب خيال البالغ ، وبين ما يناسب خيال الطفل ، وقد ثبت عند بعض الدارسين أن الخيال ضروري للطفل لتنمية قدراته ، وتوسيع رؤاه وتفتيح مداركه القابلة للتوسع والتنشيط ، فهي صفحة بيضاء قد تمتلئ سلباً أو إيجاباً ، لاسيما وقد حصر بعضهم مراحل خيال الطفل في الآتي (مرحلة الواقعية والخيال المحدود بين 3–5 سنوات ، ومرحلة الخيال المنطلق من 6–8سنوات ، ثم تأتي مرحلة الطفولة بين 8–13 سنة ، وأخيراً مرحلة المثالية بين 13–15 سنة) [2] (زيعور 1998م) وهذه المراحل بطبيعة الحالة تمثل حدود البحث .

واستناداً على ما تقدم، يمكن إدراك أهمية هذه المراحل في حياة الطفل ، مما يحتم ضرورة تكوين هذه الصفحة البيضاء بما يخدم احتياجات الطفل الوجدانية والتربوية والجمالية ، كل ذلك يدعو إلى الوقوف على ثغرات في دراسة العلماء والنقاد العرب لقضية التخييل ، ومحاولة استخدام قوانين التخييل العامة، لدراسة التخييل الخاص بالطفل، بالتالي يمكن التأكيد على أن في التراث العربي ما يمكن توظيفه لخدمة قضايا معاصرة ، وليس تراثاً مهملاً ينظر إليه كالمادة الأثرية التي تطل من وراء زجاج .

وقد حاولت الدراسة الاجابة عن بعض التساؤلات بشأن أثر الخيال في الناشئ منها:

1. هل بإمكان التخييل الشعري تنمية خيال الناشئ؟

2. هل يدرك معدو المناهج التربوية للناشئة عدم وجود تناقض بينما يقدم لهم من شعر ، وبين ما يتلقون من قيم إسلامية درساً وتنشئة.

التخييل والتوازن النفسي :

عرّف ابن سينا التخييل الشعري مستصحباً معه الأثر الذي يتركه الشعر في نفس المتلقي ، ومن خلال هذا التعريف العام يمكن النفاذ إلى موضوع الدراسة ، فالتخيل عنده هو الكلام الذي تذعن له النفس ، فتنبسط عن أمور ، وتنقبض عن أمور أخرى من غير روية و فكر، سواء كان القول مصدقاً به أو غير مصدق به ، والناس للتخييل أطوع منهم للتصديق) [3] (ابن سينا 1973م) ، يتضح من خلال تعريفه أن التخييل الشعري يقيم صوراً في نفس المتلقي من خلال الهيئات الصياغية ، فتنبسط وترتاح لبعضها وتنقبض للبعض الآخر ، مما يشير إلى إمكانية توجيه المتلقي ودفعه إلى غايات الشعر والتجاوب مع مقتضاه، فإذا كان المتلقي طفلاً ، كان ذلك أوجب لعدم وجود نزعة عقلية راسخة عنده تُوجد معارضة تحول دون تحقيق ما نريده من التخييل الشعري ، وهنا تكمن خطورة التخييل الشعري وأهميته ، لاسيما أن الطفل بطبيعة الحال تختفي عنده ملكة التنبه الواعي ، وتظهر فيه ملكة التَخيُّل الانفعالي النفسي ، فما يتلقاه الطفل من أشعار يبقى أثره في نفسه ، فلو كان مضمون النص سلباً، تفاعل معه ، ولو كان مضمونه إيجاباً تفاعل معه أيضاً ، ما يؤكد أن انفعال التخَيُّل يكون بغير روية وفكر واختيار ، فالتخيل الشعري بهذا المعنى يكون (بروزه عند عوام الناس أقوى منه عند خاصتهم ، وبروزه عند الطفل أقوى منه عند البالغ ، وذلك بسبب استقواء الانفعالات النفسية عند من تضعف عندهم الملكة الفكرية) [4] (الروسي 2001م) عليه، كلما قويت الثقافة والفكر حدث أمران: .

الأول : الإدراك الواعي ، وهو وعي المتلقي بمقاصد التخييل ، فيملك بذلك اختياره والتحكم في تخيلاته .

الثاني : التكامل ، ونقصد به أن الانفعال النفسي صادر من انفعال فكري وبذلك يصيران كالشيء الواحد .

وهذان ليس بمقدور الطفل امتلاكهما ، ولكن إذا صارت المادة التعليمية الشعرية المقدمة للطفل على قدر استعداده التخيلي النفسي والعقلي ، كانت أشد تحريكاً له لأنها تعزر فيه الملكة النفسية والعقلية معاً ، وهذا في حد ذاته كفيل بتحريض معدي المناهج العلمية الأدبية للأطفال أن يستصحبوا هذه الميزة ، كما أن عليهم اختيار الأشعار التي تناسب استعداد الطفل العقلي والانفعالي ، حتى تطمئن نفسه وتنقاد لها ، فإذا كانت المادة الشعرية التعليمية مخالفة لما يعهده ويعلمه ويعتقده ؛ اضطربت نفسه ولم تطمئن لها ، ومما لا شك فيه أن التربويين قد أفنوا جهدهم في ابتكار وسائل تعليمية لتوصيل المعلومة ، غير أن ما يمتاز به الشعر من وسائل صياغية وهيئات تأليفية رائعة يعد من أنجع الوسائل التي تأخذ الناشئ للإفادة من المادة الشعرية لتحقيق الأهداف المرجوة ، فهو لم يكن يعي خطورة ما يتلقاه في هذه السن ، هذا إذا سلمنا يتواضع قدرته العقلية وبروز قدرته الانفعالية، أدركنا أن الشعر من أخطر الوسائل التعليمية تأثيراً في نفس الناشئ ، ولنا أن نتأسى بقول حازم (التخييل إذعان وقبول النفس له وتلذذ وإعجاب بالقول لما هو عليه، ومجال الشاعر هنا النفس وليس العقل ، وعمله هو التأثير بما يقدمه من قوة التخييل مصحوباً بوسائله التعبيرية) [5] (القرطاجني 1986م) .

لذا ينبغي أن تحوي المادة الشعرية المقدمة للناشئ مضموناً أخلاقياً لضمان تحقيق الغرض الجمالي والوجداني والتربوي ، فإذا خالفت المادة الشعرية هذه المقاصد، اضطربت نفسه ؛ لأنها تخالف ما عهده ، مثال ذلك إذا تعهدنا الفتاة الناشئة ، في البيت ، وفي دور العبادة ، وفي المدرسة ، أن التبرج حرام بنص الكتاب والسنة ، وأن

الحجاب من الشرع ، فلم يزل مدرس التربية الإسلامية يردد هذه الفكرة حتى رسخت في ذهنها واطمأنت لها نفسها ، ولكن سرعان ما يطل عليها المعلم في حصة اللغة العربية في قصيدة تحتوي أبياتا لنزار قباني [6] (قباني 1982م) في رسم صورة الفتاة بقوله :

سارتْ معي والشعرُ يلهثُ خلفَها كسنابلَ تركتْ بغيـــــــر حصادِ

فإذا تم التسليم ببروز النزعة التخييلية وسيطرتها في هذه السن ، أدركنا أن الشعر بسلطانه الآسر يمتلك القدرة الناجعة على التأثير في نفسها ، ونتاج ذلك أن يصادم انفعالها النفسي اقتناعها الفكري ، فتنقبض نفسها عما انبسطت له من قبل ، والنفس لا ترتاح عند توالي هذين النقيضين في آن واحد ، فتحار في الاختيار، والشعر يستميلها بالتأثير التخيلي النفسي ، ولما كان الانفعال عند الناشئ أقوى من التنبه العقلي ، نجدها مذعنة – لا إرادياً – لانفعالها أي الاستجابة لدعوة الشعر التخييلية ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، ربما تجد نفسها منقادة لغير ما هي مقتنعة به ، أو أن تتحول الاستجابة للانفعال الشعري إلى سلوك ، وكلاهما في الناشئة من الخطورة بمكان ؛ جراء ذلك قد يطفو على واقع الناشئة ، ويرسخ في أذهانهم التساؤل الآتي : هل القيم الإسلامية سلوك يثاب عليه المرء ، أم أنها ثقافة استهلاكية ؟ . لأن التخييل الشعري قوة في ذاته يفرض على المتلقي سلطانه فتستجيب له انفعالاته التي قد تتحول إلى سلوك . فلا يعد للاختيار الواعي مكان ، إذا علمنا ذلك؛ سهل علينا فهم استصراخ واصل بين عطاء الله والي البصرة ليردع أبا نواس الذي أفسد بشعره الحرائر ، لِم لم يواجه أبا نواس بعمل مضاد لتعليمهن وهدايتهن ؟ وتلك أخص واجبات الفقيه ، ولكن ما عساه أن يفعل وهو المدرك أن الشاعر يمتلك من الوسائل المؤثرة بشعره مالا يمتلكها الفقيه بنثره .

التخييل الشعري وأثره التربوي :

إذا كان من الأمور الحتمية وجود الخيال الخصب عند الأطفال ، فمن الثابت أيضاً عدم تساوي نمو الخيال عندهم ، فالفروق الفردية قائمة لا محال بمقدار نمو الخيال ونضجه ، وقيمة هذا أن الأدب الشعري الذي يقدم في المناهج المعدة للناشئة لا يخلق عندهم خيالاً ، بل ينمي فيهم الخيال ، ولو كان الخيال ينمو وحده دون مساعدة ، لقدر لنا إيجاد أنموذج لخيال ثابت عند الأطفال جميعهم ، ولكن هيهات ، فالخيال عند الأطفال ينمو من خلال التربية الموجهة، وفي هذا المقام ندرك أن للشعر القدح المعلى في تنمية خيال الناشئ، لأنه يحوي قيمة جمالية ولذة تعليمية ، فوق ذلك يمكن الناشئ من القراءة أو الاستماع بتجسيد الصورة الشعرية تارة وتجريدها تارة أخرى ، فهذا الشد والجذب كفيل بتمرين الخيال وتنميته وجعله أكثر نشاطاً .

التخييل الشعري بحكم سلطانه الآسر يوجه سلوك الناشئ واعتقاده ويجعله منقاداً لخياله ومستجيباً له ، فإذا علمنا خطورة التخييل الشعري في هذه المسألة ، أدركنا قيمة التخييل الشعري وفوائده ، وهي تدور في الآتي :

الفائدة الأولى : أن الصورة التي يتلقاها الطفل من التخييل المنطوق أو المسموع لا يشترط فيها أن تطابق مخيلة الشاعر ، فقد تكون قريبة منها أو بعيدة عنها ، تحيط بها أو تحلق في مداها ، ومن هنا كان حازم القرطاجني يرى أن الخيال يجمع ، ويفكك ، ويحلل ، ويعيد صياغة الصورة الأولى التي تلقاها من الشاعر ، ذلك بمقدار نشاط خيال المتلقي [5] (القرطاجني ، 1986م) وقد أشار الدكتور سمير روحي الفيصل إلى أنماط من الخيال عند الأطفال ، (**الأول** ، مخيلة نشطة ، وهي التي تدرك الصورة الشعرية كاملة، ونضيف إليها أبعاداً جديدة . . **والثاني** ، المخيلة الكسول، وهي تجهد في إدراك الصورة التخييلية التي يرسمها الشاعر) [7] (الفيصل 1998م) ، وقد يضطر

صاحبها إلى إعادة قراءة النص مرة أخرى ليلم بجزئيات الصورة، وقد ينجح في إدراكها كلها أو بعضها أو قد يفشل في ذلك ، وفي هذا المقام يذكر الباحث حينما كانوا تلاميذ في الصف السادس بمدرسة المرابيع ود اللبيح الابتدائية ، ولاية النيل الأبيض في العام 1979م ، سأل معلم اللغة العربية عن المقصود بعبارة (طاحونة) في قول الشاعر:

وثَمّ طاحـــــــونةٌ لاحتْ لأعيننا ثوانياً واختفت في الحقل مُستترا .

فأجاب تلميذ على الفور: ، تلك هي "الحاصدة" فعجب الجميع من سرعة إدراكه الصورة المستوحاة من النص من غير أن ندرك السبب في ذلك ، وهذا ما يُدرك لاحقاً من أن (الخيال الشعري يتميز بالقدرة على خلق أثر موحد من الكثرة ، مثلما يتميز بتعديل سلسلة من الأفكار بواسطة فكرة واحدة سائدة ، في مرحلة واحدة متكاملة ، لا مراحل متعاقبة منفصلة)[8] (عصفور 1993م) ، من هنا كانت مخيلة الطفل النشطة تدرك الصور الجزئية على جناح السرعة ، بدون فاصل زمني ، فتكتمل الصورة الكلية المرسومة من الشاعر باكتمال قراءته للنص ، فإذا كانت المخيلة معدة لذلك ، أدركت الصورة دون تجزئة النص بما فيه من شخصيات وأحداث وموضوع ومغزى ، وما إلى ذلك .

الفائدة الثانية : التخييل الشعري يحرض خيال الناشئ ويدفعه إلى بذل الجهد في سبيل اللحاق بالصورة أو إدراكها أو السمو إليها ، ثم بذل جهد آخر في استجماع الصور الكلية المكونة للنص الشعري ، ولا شك أن التحريض الذي تدعو إليه القصائد المعدة لمناهج الناشئة فعال غالباً .

الفائدة الثالثة : إن خيال الطفل لا يتصور دائماً صوراً مطابقة للصور التي ترسمها مخيلة الشاعر ، فبحكم خياله الناشئ لا يستطيع تحديد ملامح الصورة تحديداً تاماً كما يتصورها الشاعر ، بل يتصورها على النحو الذي أدركته مخيلته من الكلمات ، وبحسب نشاط مخيلته ، ومن ثم يرسم في ذهنه صورة ذاتية خاصة به ، وما إعادة مراجعة الناشئ للقصيدة ، مرة تلو الأخرى؛ إلا إشارة واضحة إلى محاولة اقتناص صور جزئية غابت عنه في القراءة الأولى ، وربما كانت المراجعة لإشباع نفسه فنياً ، وبطبيعة الحال فالنفس لا تشبع جمالياً بأية حال من الأحوال، ومهما يكن فإن كانت المراجعة لهذا أو ذلك ، فإن الغاية التربوية تتحقق من خلال تنشيط المخيلة وتهيئتها لتقبل الصور الشعرية مهما تعددت وتداخلت .

الفائدة الرابعة : الراجح من البعض عدم تقييد خيال الشاعر ، ففي هذا السياق يبرز سؤال، لكون اللغة الشعرية ذات دلالات مفتوحة ، هو ما المدى المسموح به للخيال الشعري الذي يقدّم للناشئة؟ للإجابة عن ذلك يحيلنا إلى قدامة بن جعفر الذي درس هو الآخر قضية التخييل الأرسطية ، وأعطى حرية للشاعر إلى درجة الغلو استناداً إلى ما بلغه من قول بعضهم: (أعذب الشعر أكذبه) ومهما كان ذلك مباحاً في الشعر أو غير مباح ، فإن الغاية التربوية والجمالية المرجوة من التخييل الشعري المقدم للناشئ ، تتحفظ على تقييد خيال الشاعر ، فالخيال هو البيئة التي يحلق فيها الطفل، ويساعد شخصيته على النمو السليم ، وإن كان هنالك من تقييد ، أن تكون الصور والمضامين الشعرية مُنتخبة من واقع الطفل ؛ وأن يُستبعد الباطل، وتُستصحب قيم الفضيلة ، لأن ذلك يسهم في تشكيل شخصيته مستقبلاً ، وعلى التربويين مراعاة ذلك مراعاة رعاية لا مراعاة وصاية.

بذلك قد ينتقل من التخييل الافتراضي المعنوي إلى التخييل الأدبي المادي المكتوب ، ولا شك أن هذا كله لا يتضح إذا لم تحلل أنواع التخييل الأدبي تحليلاً لغوياً قادراً على تحديد أثرها في خيال الطفل العربي .

والنصوص التي نعتقد أنها تحقق معنى التحليق لخيال الناشئ وتحقق فيه غايات جمالية ووجدانية وتربوية ودينية ، قصيدة أهل المدينة في استبشارهم بمقدم النبي (صلى الله عليه وسلم) :

طـــــــــــــلعَ البدرُ علينا من ثنياتِ الـــــــــــوداعِ
وجـــــــــــبَ الشكر علينا ما دعـــــــــــا لله داع
أيها المبعـــــــــــوثُ فينا جئت بالأمـــــــر المطاع
جئت شرفت المـــــــــــدينة مرحباً يا خيـــــــرَ داع

ولعلَّ علماء مناهج التربية والتعليم السودانية (بخت الرضا) حينما اعتمدوا مثل هذه الأناشيد في المناهج التعليمية للنشئ ، كانوا يدركون دور النص في تحليق خيال الطفل في فضاءات واسعة . والنص السابق يحيل إلى قياس جملة من القيم التربوية منها :

1- توظيف الفن لتحقيق الهدف الديني والتربوي ، وهذا الهدف لا يتحقق إن قدم ذلك في أسلوب تقريري مباشر .
2- استبشار أهل المدينة بالنبي (صلى الله عليه وسلم) واستقباله خارج الديار ينبئ عن منزلة القادم وتصوير النص لشخصه بالبدر من النجاعة بمكان ، إذ يعزز ذلك في نفس الناشئ صفة العلو والوضاءة والطهر في رسولنا الكريم .
3- النص يرسم ثلاثة أبعاد لشخص الرسول الكريم ، البعد الشخصي "البدر" والبعد القولي: الدعوة إلى الله، " خير داع " ، " الأمر المطاع" . البعد الاقتدائي الاتباعي : " وحب الشكر" ، "المبعوث فينا" ، فهذه الأبعاد تنطوي على قيم ينبغي غرسها في نفس الناشئ ، لا تعدو أن تكون في حسن التأسي بالنبي "صلى الله عليه وسلم" شخصاً وقولاً وفعلاً .

فالنص هنا يقوي اعتقاداً راسخاً في نفس الناشئ ، بيد أنه أحياناً ينتقض النص الشعري اعتقاداً صحيحاً في مخيلة الناشئ ، مثل: تصوير الوطن بصورة أفضل من الجنة، مع العلم أن الفكرة صارت جزءاً من سلوكه واعتقاده، فالكلام في هذا المقام يحلينا إلى ما قرره حازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، فذكر أن الشاعر لا يخلو كلامه من أحوال هي : تحسين حسن ، وتقبيح قبيح ، وتحسين قبيح ، وتقبيح حسن ، ما يعنينا في هذه الدراسة هو النظر إلى ذلك في حالين ، هما الأول " تحسين حسن ، وتقبيح قبيح ، وهو ضرب تكمن خطورته في كون العامة والخاصة في المجتمع الإسلامي متفقين منهجاً لا واقعاً على ما هو حسن ، وعلى ما هو قبيح ، بيد أن ما يلقى لأطفالنا على أنه حسن ، ويعتبره الدين قبيحاً ، يحدث تناقضاً نفسياً مادياً وخللاً تربوياً ، ولا مراء في كون تحسين الحسن ، وتقبيح القبيح ، أمراً ترتضيه النفس البشرية ، وقد صيغت المناهج التعليمية في الشعر لإعلاء قيمة ما هو حسن ، ورسخت في مخيلته قيمة حميدة توافق الفطرة التي فطر عليها ، من حب القيم الاجتماعية والوطنية والتربوية ، فتنشأ نفسه على حب الفضيلة وكراهية الباطل ، فيغدو النص من خلال دوره الفني ومضمونه التربوي ، وسيلة تأخذ بيد الناشئ إلى التحليق في فضاءات أرحب من الواقع (إن الصورة الأولى إذا أعيد صنعها يمكن أن تكشف عن براعة ذهنية وقدرة على إدارك الغريب الذي لا يُعهد) [9] (الجرجاني1991م)

خاصة إذا كانت مخيلته من النوع النشط ومما يناسب هذا المقام قصيدة [10] (شوقي 1989م) ذات النهج التعليمي التي يقول فيها .

رأيت في بعـض الرياض قُبُرَة تُطَيِّر ابنها بأعلى الشجـــــرة
وهي تقـــــول يا جمال العُش لا تعتمـــد على الجناح الهشِّ
وقِفْ على عـــود بجنب عود وافعلْ كما أفعلُ في الصعود
لكنه قد خـــــالف الإشارة لما أراد أن يظهر الشطـــــارة
وطار في الفضاء حتى ارتفعا فخانه جنـــــــــاحه فوقعا
فانكســرت في الحال ركبتاه ولم ينل من العـــــلا مناه
ولو تأنَّى لنـــــال ما تمنى وعاش طول عمـــره مهنَّى
لكل شيءٍ في الحيـــاة وقته وغاية المستعجـــلين فوته

فإذا سلمنا بأثر النص السابق في الإسهام في تحليق خيال الناشئ من خلال حشد الصور المتنوعة ، وإجراء حوار واع يفضي إلى غاية تربوية نذم التعجل وتمدح الأناة ، ففي ذلك تثبيت وتعزيز لقيمة دينية ، إذ روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأشج عبد القيس :(إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة) [11] (درار 1403هـ) أدركنا أن نفس الناشئ لا تجد معارضة ، بل النص عزز وقوى ما كان قد يعتقده آنفاً ، لأن المعنى المستهدف غرسه في نفس الناشئ، حُمل في قالب شعري ، وذلك أشد أثراً في نفس الطفل من سواهم ، ولا يقدح فيه كون الحوار دار على ألسنة الطير ، فأدبنا العربي مليء بذلك ، مثل كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع ، وكتاب النمر والثعلب لسهل بن هارون ، فالراجح مع أن تكلم الحيوان تخييل لا كذب، فالسامع والمتكلم كلاهما عالم بأن المقصود منه تقريب المعنى وتقويته حال حمله في قالب فني ، وتلك الصورة أشد أثراً في نفس الطفل من سواها .

الضرب الثاني : ما يُقبّح فيه الحسن أو يحسن فيه القبيح ، فالمقال ينصرف إلى الشق الثاني أي ما يحسن فيه القبيح، مثل الأشعار التي تدعو إلى وصف لذة الخمر ونشوتها وصفائها ، فلا مراء في رفض النفس لذلك ، فإذا سلمنا بذلك ، أدركنا أيضاً أن هنالك أوجهاً خفية في إطار تحسين الحسن ، ينحو بها الشاعر منحى أقرب إلى التقبيح ، بتصوير الحسن المطلق بما هو أحسن منه ، حتى يصبح في حكم القبيح ، ومن ذلك بعض الأشعار تصور الوطن في صورة أفضل من الجنة ، فيغدو بذلك لا هو حسّن حسناً ولا قبيح قبيحاً ، فكيف يستقيم إغراء الناشئ بصورة الجنة التي لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر، أو كما يعزز القرآن الكريم الاعتقاد فيها بقوله تعالى : (فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) (سورة عبس ، 27–31) ثم يطالع الطفل نصاً ينسف فيه ذاك الاعتقاد الراسخ أو على الأقل جعله يهتز في دواخله ، ومن المفارقات أن القصيدة استهلت بتصوير الحدائق وإظهار طيب هوائها وتغريد بلابلها ، مما يعزز في نفس الطفل صورتين متشابهتين ، بينما الأفضلية للوطن على الجنة ، مثال ذلك قصيدة أحمد شوقي التي قال إنها وضعت للأطفال ، [10] (شوقي 1989م) .

عصفـــورتان في الحجاز حلـــــــتا على فنن

في خـــــــامل من الرياض لا نـــد ولا حسن
بينا هما تنتجـــــــــيان سحراً على الغصـــن
مر على أيكيـــــــــــها ريح مـــن اليمـــــــن
حيـــــــا وقال : درتان في وعـــاء ممتهن
لقـــد رأيت حـــول صنعـــاء وفي ظـــــل عدن
خمـــــــــــــائلاً كأنها بقية من ذي يـــــــزن
الحب فيهـــا سكـــــــر والماء شهـــــــد ولبن
لم يرهـــا الطيـــــر ولم يسمع بها إلا افتتـــــن
هيا أركبـــا نأتـــــــها في ساعـــة من الزمن
قالت له إحداهمـــــــا والطير منهن الفطـــــن
يا ريح أنت ابن السبيـــل ما عـــــرفت ما السكـــن
هبْ جنة الخلد اليمـــــن لاشيء يعدل الوطـــــن

فإذا رسخت هذه الفكرة في نفس الطفل ، فلا خير حينئذ للوطن ، فلا نحن علمناه حب الوطن ، ولا نحن أغريناه أن يطلب جنة ربه ، والأدهى أن الفكرة نيطت بترتيب محكم وخيال واسع واسلوب سلس ، فضلاً عن أن الصور التزمت جانب المحسوس ، مما يعزز أثرها الخيالي في نفس الناشئ ، ويحتم استجابتها لمضمون النص استجابة راسخة ، ولكن أي المعاني تكون أقوى رسوخاً في نفسه . بلا شك أن نفسه تنبسط لصورة الطبيعة الجميلة الرائعة ، فيتلذذ بتملي مشاهدها التي تأخذ بالألباب ، فما أن يصل إلى البيت الذي يجعل الوطن أفضل من الجنة ، يحس في دواخله بتناقض ما كان يعتقد في الجنة ، فتنقبض نفسه عما انبسطت له من قبل ، لذا الأولى مراعاة ذلك عند إعداد المناهج الشعرية للناشئة . بذلك يمكن توجيه الشعر نحو منحى وظيفي من شأنه إغراء الناشئ على فعل الشيء أو اعتقاده أو تركه وفق ما تقتضيه الفضائل الكبرى : الدين ، العقل ، متطلبات صلاح نفسه .

النتائج :

1- النشئ متساوون في امتلاك شخصياتهم الخيال ، غير أن التمايز في نمو الخيال ونشاطه، رهن البيئة والتربية التي يتلقاها ، ومن هنا تتأتي قيمة استصحاب الأشعار التي تتعهد بتنمية ملكة الخيال عندهم، لاسيما تلك التي تجعل خيال الناشئ يتأرجح من التجسيد إلى التجريد ومن التجريد إلى التجسيد ، ففي ذلك تمرين للخيال ونقله من حال إلى حال . ومن خلال ذلك يتحقق الهدف الذي نصبو إليه ، وهو تنمية خيال الطفل العربي ومنحه حرية التحليق .

2- يطمئن معدو المناهج التعليمية على اكتمال عملية التأثير في نفس الناشئ ، إذا حدث تصالح بين ما تتطلبه نفس الناشئ والفكرة المنقولة شعراً . وبالمقابل فإن التناقض بين ما وقر في نفسه من قيم دينية واجتماعية أو وطنية والمضمون الشعري يقلل من قدرة الطفل من التحليق في فضاءات النص .

3- لما كان الطفل يستطيع أن يفهم ما تسمح به لغة الشاعر ويتخيل تبعاً لما توحي به ، وينطلق خياله في حدود النشاط الذي تملكه مخليته وتعينه عليه قدرته على إجادة الغوص في المقروء ، وجب علينا عدم تقيد انطلاقة خيال الشعر الموجه للناشئة ، إلا بمقـــدار ما يتنافى وقيم الدين والعرف والأخلاق .

التوصيات :

1- ضرورة استصحاب حاجات الناشئ الوجدانية والإجتماعية والتربوية عند إعداد مناهج أدب الطفل ، تنويع الأساليب الشعرية ما بين سرد مباشر وتصوير، وأسلوب تمثيلي وآخر قصصي، ورمز، حتى تناسب أنماط أخيلة الأطفال من مخيلة كسولة ومتوسطة ومخيلة نشطة .

2- أن تحمل النصوص الشعرية المعدة للناشئ مضموناً مبتكراً محمولاً في قالب شعري ، وأن ينأى عن المألوف من الصور ، لأن النفس تجد في النقلة المتنوعة ارتياحاً يعقبه انجذاب ، كل ذلك هو مناسبات زائدة تقوي من أثر الشعر في نفسه ، وترفع درجة خياله .

المراجع :

القرآن الكريم .

1- فــوزي ، رندة (2002م) . الخيـــال عنـــد أطفالنا . مجلة التقـــدم العلمي الكويت . العدد 40 . ص 29 - 36 .

2- زيعور ، علي (1998م) . انحرافات السلوك والفكر في الذات العربية . دار العودة . بيروت . الصفحات 254 .

3- ابن سينا ، أبو الحسن بن عبد الله (1973م) . كتاب الشفاء . تحقيق عبد الرحمن بدوي (ضمن كتاب الشعر) . مكتبة النهضة العربية . القاهرة . الصفحات 480 .

4- الروسي ، محمد الحافظ (2001م) . قوانين التخييل الشعري بين الخاص والعالم . دار الثقافة . بيروت . لبنان . الصفحات 260 .

5- القرطاجني ، حازم (1986م) . منهاج البلغاء وسراج الأدباء . ط دار الغرب الإسلامي . بيروت . لبنان . الصفحات 386 .

6- قباني نزار (1982م) . الديوان . ط2 . مطبعة الخانجي . بيروت . لبنان . عدد الصفحات 186.

7- الفصيل ، سمير روحي (1998م) . الخيال والتخييل في أدب الأطفال . دار الإرشاد . حمص . سوريا . الصفحات 196 .

8- عصفور ، جابر (1973م) . الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب . ط دار الكتاب المصري . القاهرة . مصر . الصفحات 395 .

9- جعفر ، قدامة (1956م) . نقد الشعر . ط بونيكر . ليدن . الصفحات 298 .

10- الجرجاني ، عبد القاهر (1991م) . أسرار البلاغة . تحقيق شاكر ، محمود محمد . ط دار العودة . جدة . السعودية . الصفحات 274 .

11- شوقي ، أحمد (1989م) . الديوان . دار التراث الإسلامي . القاهرة . مصر . الصفحات 203 .

12- درار ، محمد عبد الله (1403هـ) . المختار من كنوز السنة النبوية . ط4 . إدارة إحياء التراث الإسلامي . الدوحة . قطر . عدد الصفحات 536 .